الحلقة (٢٩)

تحدثنا عن الألفاظ المجملة في كلام الناس، والتي يوردها المتكلمون في أثناء كلامهم على صفات الباري جل وعلا، أو في أصول الدين، فبينت أن الألفاظ المجملة يجب الاستفسار والتفصيل عنها، ويستفهم عنها حتى يتبين الحق من الباطل، والواجب أن يُجعل ما قاله الله سبحانه وتعالى وما قاله رسول صلى الله عليه وسلم هو الأصل، ويتدبر معناه، ويعقل ويعرف برهانه ودليله، إما العقلي وإما الخبري السمعي، وتعرف دلالته على هذا، ويجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، من قبيل المتشابه والمجمل، فيقال لأصحابها هذه الألفاظ تحتمل، وهي محتملة، فإن أردتم بها كذا، ما يوافق ما جاء عن خبر الرسول صلى الله عليه وسلم تقبل، وإن أردتم بها ما يخالف ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم ترد، وهذا مثل لفظ المركب، والجسم، والمتحيز، والجهة، والجوهر، والحيز، والعرض، ونحو ذلك من هذه الألفاظ التي لم تأت في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح، بل ولا في اللغة، بل هم يختصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها، فهي من مصطلحات القوم، فتفسر تلك المعاني بعبارات أخر، وينظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل.

◈ **مثال ذلك: التركيب وله معان:**

○ **أحدها: التركيب من متباينين فأكثر، ويسمى "تركيب مزج"**، كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلك، وهذا المعنى منفي عن الله سبحانه وتعالى، ولا يلزم من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال، أن يكون مركبا بهذا المذكور.

إذن التركيب على هذا المعنى منفي عن الله، نستفصل هذا الاستفسار وهذا الوجه من معاني التركيب منفي عن الله سبحانه وتعالى.

○ **المعنى الثاني تركيب الجوار**، كمصراعي الباب ونحو ذلك، ولا يلزم أيضاً من ثبوت صفاته تعالى إثبات هذا التركيب، إذن هذا المعنى من معاني التركيب منفي عن الله سبحانه وتعالى.

○ **المعنى الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلة**، وتسمى الجواهر المفردة، متماثلة مثلها مثل بعض.

○ **المعنى الرابع: التركيب من الهيولي والصورة**، كالخاتم مثلا هيولاة الفضة، وصورته معروفة، حلقة صغيرة تلف الأصبع، أو تستدير حول الأصبع.

وأهل الكلام قالوا: إن الجسم يكون مركبا من الجواهر المفردة، ولهم كلام في ذلك يطول ولا فائدة فيه، وهو أنه هل يمكن التركيب من جزأين، أو من أربعة، أو من ستة، أو من ثمانية، أو من ستة عشر، وليس هذا التركيب لازماً لثبوت صفات الله تعالى وعلوه على خلقه،

◄ **والحق أن الجسم غير مركب** من هذه الأشياء، وإنما قولهم مجرد دعوى، وهي مبسوطة في مثل هذه

الكتب التي تتكلم عن هذه المسائل.

oالمعنى الخامس: **التركيب من الذات والصفات،** وهذا سموه تركيبا يعني ليس في الحقيقة تركيب، بل سموه تركيبا لينفوا به صفات الرب تعالى، **وهذا اصطلاح منهم لا يعرف في اللغة، ولا في استعمال الشارع، محدث، فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامة،** ولو أن سموا إثبات الصفات تركيبا، فنقول لهم العبرة للمعاني لا لألفاظ، سموه ما شئتم، فلا يترتب على التسمية بدون المعنى حكم، فلو اصطلح على تسمية اللبن خمرا لم يحرم بهذه التسمية.

oالمعنى السادس: **التركيب من الماهية ووجودها،** وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران، أي مختلفان، الماهية ووجود الماهية.

أما في الخارج هل يمكن ذات مجردة عن وجودها، ووجودها مجرد عنها، هذا محال ومستحيل، فترى أهل الكلام يقولون هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده؟ ولهم في ذلك خبط كثير، وأمثلهم طريقة وأحسنهم طريقة رأي الوقف والشك في ذلك، وكم زال بالاستفسار والتفصيل كثير من الأضاليل والأباطيل، فلابد أن نستفسر و نستفصل حتى تزول هذه الأضاليل، وهذه البدع المنكرة.

سبب الانحراف هو الإعراض عن تدبر كلام الله عز وجل، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، والاشتغال بكلام اليونان، والآراء المختلفة، وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفا، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به في موضع آخر ومع من ينكر الحس، وكل من قال برأيه أو ذوقه أو سياسته مع وجود النص أو عارض النص بالمعقول، فقد ضاهى إبليس لعنه الله، حيث لم يسلّم لأمر ربه بل{ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} ، ويقول الله سبحانه وتعالى و تعالى {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} ويقول الله تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيم } ويقول الله تعالى {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا النبي صلى الله عليه وسلم، ويرضوا بحكمه، ويسلموا تسليما.

ثم نأتي لقول المؤلف رحمه الله الطحاوي: **(فيتذبذب** –يقصد من يقع في هذه الضلالات ويترك كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم- **بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسا تائها، شاكا زائغا، لا مؤمنا مصدقا، ولا جاحدا مكذبا)،** يتذبذب يضطرب ويتردد، وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رحمه الله تعالى حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد، وهو من أعلم

الناس بمذهب الفلاسفة ومقالاتهم في كتابه (تهافت الفلاسفة): ومن الذي قال في الإلهيات شيئا يعتد به؟ مع أنه لم يقل أحد من الناس في علوم الإلهية قولا يعتد به.

ما فيه أحد في علم الكلام تكلم بأصول الإيمان اعتد بقوله، كل كلامهم **هباء** بل هو ضار، وكذلك **الآمدي** أفضل أهل زمانه، واقف في المسائل الكبار حائر، وكذا **الغزالي** الذي أوردنا كلامه قبل قليل، انتهى أخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، نسأل الله السلامة والعافية، ثم أعرض عن تلك الطرق، أراد الله به خيرا فختم له بهذه الخاتمة، أعرض عن تلك الطرق الكلامية، وأقبل على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحيح البخاري على صدره، وكذلك **أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي**، قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات يقول: هذا النظم الذي يدل على حيرة المتكلمين وضياعهم وشكهم وتحيرهم يقول:

نهاية إقـدام العــقول عـقــالُ**وغاية سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومـنا**وحاصل دنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنـا**سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
فكم قد رأينا من رجال ودولـة**فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتهـا**رجال فزالوا والجبال جبال

يقول الرازي: **"لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات "الرحمن على العرش استوى" "إليه يصعد الكلم الطيب" وأقرأ في النفي "ليس كمثله شيء" "ولا يحيطون به علما"، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي" وهذا أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء.**

وكذلك قال الشيخ أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، صاحب الكتاب المشهور في الفرق والملل والنحل، يقول إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها**وسيرت طرفي بين تلك المعالِمِ
فلم أرَ إلا واضعا الكف حائر** على ذقن أو قارعا سنَ نادم

وكذلك قال أبو المعالي الجويني رحمه الله: وهو متكلم ومع ذلك ينهى الناس عن ذلك، "يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ، ما اشتغلت به" وقال عند موته: "لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال على عقيدة عجائز نيسابور" بلدته.

وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي، وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي، قال لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوما، فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك

مستيقن به أو كما قال؟ فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد – نعوذ بالله من هذا الحال – والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، وبكى حتى أخضل لحيته".

ولابن الحديد الفاضل المشهور بالعراق نظم يقول:

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري

سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر

فلحا الله الأولى زعموا أنك المعروف بالنظر

كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن قوة البشر

وقال الخولنجي عند موته: "ما عرفت مما حصلته شيئا، سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح" ثم قال: "الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئا" لكن لو قال الإنسان {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} : أثبت أن الرحمن سبحانه وتعالى على عرشه مستو، وقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء } فأثبت أن الله سبحانه وتعالى لا يشبهه ولا يماثله شيء، {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} فأثبت أنه سميع وبصير فارتاح من هذا العناء والعذاب الذهني والعقلي، فإن من النشاطات العقلية والأعمال العقلية الفكرية ما هو أشد من الأعمال البدنية، فهو يقول هنا، وهذه تجربة مجرب يجب أن يستفاد منها يقول: "ما عرفت مما حصلت شيئا سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح" ثم قال: "الافتقار وصف سلبي" لأن قال الممكن يفتقر إلى المرجح، ثم قال "الافتقار وصف سلبي أموت وما عرفت شيئا" هنا تظهر حيرته وشكه ونبذه لعلم الكلام، وتذمره من فعله طوال عمره.

وقال آخر أضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء، حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي منها شيء" نعوذ بالله من هذا الحال، من لم يوفق إلى الحق فلا يستطيع أن يصل إليه بنفسه.

ومن يصل إلى هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته، وإلا يتزندق -نسأل الله العافية- كما قال أبو يوسف رحمه الله: "من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب".

وقال الشافعي رحمه الله: "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام" وقال: "لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء، ماظننت مسلما يقوله، ولإن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماخلا الشرك بالله، خير له من أن يبتلى بالكلام" وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك، التي كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهايتهم إذا سلموا من العذاب بمنزلة أتباع العلم من الصبيان والنساء

والأعراب، والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح صلاته: (اللَّهُمَّ رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)، والحديث خرجه الإمام مسلم في صحيحه.